٧ ـ تاريخ العرب الأدبي

للأستاذ رينولد نيكلسون

ترجمة حسن حبشي

الفصل الأول

أما القصيدة الموجهة إلى ولده وخليفته حسّان والتي اقتضت التقاليد والعرف أن يقولها فلا تعدو نصيحة الوداع وقد استنفد جزءاً كبيراً منها في تعداد غزواته والفخر بأسرته وبنفسه[1] وكل ما نجده فيها من الأمثال والنصائح لا يعدو قوله :

حضرتْ وفاة أبيك يا حسّان ... فانظر لنفسك فالزمان زمان
فلربّما ذل العزيز وربّما ... عزّ الذليل وهكذا الانسان
قولوا لحمير يقبروني واقفاً ... وتكنفي مي الخيلان والرقّان[2]
وانظر لكاهنتي فان كلامها ... علم وأن بصوتها غيمان

وعلى ذكر غيمان[3] فيمكن إضافة بضع كلمات قلائل حول قلاع اليمن التي تجثم بقاياها الخربة وتتراءى للمسافر المار بها في وحدتها متجهمة ساخرة ؛ ومنذ ألفي عام ، وربما قبل ذلك بكثير كان يسكن هذه القلاع والحصون أمراء أقوياء الشكيمة مستقلون أو شبه مستقلين يولون ملوكهم ويعزلونهم أحياناً حينما أخذت دعائم الامبراطورية الحميرية تتداعى . ولقد أسهب الهمداني الجغرافي في وصف هذه القلاع في المجلد الثامن من مؤلفه العظيم « الاكليل » الذي تناول فيه تاريخ اليمن وذكر عادياتها وآثارها[4] ، وإن أقدم هاتيك الحصون وأشهرها لهو المسمى « غمدان[1] » قلعة صنعاء ، ويصفونه بأنه صرح هائل ذو عشرين طابقاً ارتفاع كل طابق عشر أذرع ؛ وقد شيدت أوجهه الأربعة من حجارة متباينة الألوان : بيضاء وسوداء وخضراء وحمراء ، وعلى قمة الصرح غرفة ذات نوافذ رخامية محلاة بالأبنوس والخشب المصقول ، وفي وسطها لوحة مرمرية فاذا ما اضطجع صاحب غمدان على سريره ، شاهد الطيور محلّقة فوق رأسه ، واستطاع أن يميز الحدأة من الغراب ؛ وفي كل ركن من أركان الغرفة قد نصب تمثال أسد من البرنز ، فاذا ما هبت الريح تغلغلت في ثناياها ، فيخرج منها إذ ذاك صوت أشبه بزمجرة الليوث

وإن مخاطرات « أسعد كامل » مع الساحرات الثلاث تذكر القارئ ببعض مناظر خاصة في رواية ماكبث . وإن العجيب في تاريخ ابنه حسان ، تلك الحادثة التي تؤلف منظراً أشبه بمنظر مسير غابة برنام[2] . وهنا نشير إلى قبيلتي طسم وجديس ، ولما أحدثت جديس المجزرة التي فتكت فيها بطسم استطاع أحد أفراد القبيلة الثانية الهروب وهو « رباح بن مرة » فاحتمى بتبع حسان ، واستطاع أن يؤثر فيه حتى أرسل معه جيشاً ليقتصّ به من القتلة . وكانت أخت رباح وتدعى « زرقاء اليمامة » قد بنت بأحد رجالات جديس ؛ وكانت حادة البصر حتى لقد كان في استطاعتها أن ترى الجيش على بعد ثلاثين ميلاً ، ولما كان رباح يعرف ذلك في أخته فقد نادى في الجيش أن يقتلع كل رجل شجرة ويحملها أمامه . وإذ جن المساء وأصبحوا على مسيرة يوم من جديس قالت زرقاء اليمامة لقومها : « إني أرى غابة تسير إليكم » فلم يصدقها أحد وسخروا بها حتى إذا كان الصباح أغار حسان عليهم وأعمل السيف في رقابهم

ولقد أحس زعماء حمير أن الحملات الحربية — التي شجعها حسان — إنما هي عبء ثقيل عليهم ، فدبروا مؤامرة لذبحه

(١) يجد القارىء النص العربي الكامل لهذه القصيدة في كتاب فون كريمر :
Altarabische Gedichte ueber die Volkssage von Jemen, P. 20 seg
وقد ترجمها بنفسه نثراً في كتابه « خلاصة السألة الحميرية ص ٤٤ وما يليها »

(٢) وقد ترجم فون كريمر (في تعليقه على النص العربي ص ٢٦) « ادفنوا مي الخيلان » بمعنى الخيل ، و « الرقان » جمع رقيق ، وفضلا عن عدم ورود هذا الجمع في المعاجم فليس من المعقول أن يأمر الملك بمثل هذه الوحشية ، ومن ثم فقد قرأت خيلان (جمع خال) بمعنى « حشايا اليمن الناعمة » وقرأت « زقان » جمع « زق » (المؤلف)

(٣) غيمان أو مغلاب قلعة قرب صنعاء كان يدفن فيها ملوك حمير

(٤) قام D. H. Müller بطبع النص العربي من هذا الجزء من كتاب الاكليل مع ترجمته في مجلة S. B. W. A. ج ٩٤ ، ٩٧ (فينا ٨٧٩ — ١٨٨٠)

(١) مما جاء في الطبري (ج١ص٩٢٩) عن غمدان قول أحد الشعراء :
وغمدان الذي حدثت عنه ... بنوه ممكنا في رأس نيق
بمهمة وأسفله جروب ... وحر الوصل للتق الزليق
مصابيح الليط تلوح فيه ... إذا يمسي كتومان البروق
ونخلته التي غرست إليه ... يكاد البسر يهزز بالعذوق
(المترجم)

(٢) يشير المؤلف إلى المنظر الخامس من الفصل الخامس ، حينما دخل مارس الغابة على ماكبث مخبراً إياه بأنه قد رأى غابة برنام Bernam تسير (المترجم)

وتولية أخيه عمرو مكانه ، فقالوا له : « افتل أخاك حسانا وتملك علينا وترجع بنا إلى بلادنا[1] » فامتنع بادئ ذي بدء وأبى الخضوع لما أشاروا به ، غير أنهم استطاعوا التغلب عليه فطعن بيده تبع ؛ بيد أن الجرح أفض مضجعه ، ولم يذق جفناه الكرى فصمم على أن يقتل كل من وسوس اليه بذلك ؛ وكان هناك زعيم يدعى « ذا رعين » حاول جهده انقاذ عمرو مما هو مقدم عليه فما استطاع ، ولما وجد أن محاولاته ذهبت عبثاً كتب رقعة رفعها اليه وختمها وقال له : « ضع لي هذا الكتاب عندك حتى أطلبه » فلما مثل ذو رعين أمام عمرو سأله عن الرقعة فأخرجها فاذا فيها :

ألا من يشترى سهراً بنوم ... سعيد من يبيت قرير عين
فاما حمير غـــدرت وخانت ... فمعذرة الاله لذي رعين[2]

فلما قرأها عمرو أيقن الاخلاص فى قوله ثم أطلق سراحه

وقد انتهى عهد التبابعة بعمرو هذا . أما الملوك الذين خلفوهم فقد كان يختارهم ثمانية أقيال أقوياء ، كانوا فى الحقيقة أمراء مستقلين ، يحكم كل منهم فى حصنه القوى . وفى أثناء هذه الفترة غزا الأحباش بعض أجزاء المملكة ، وأرسل النجاشى ولاته المسيحيين ليحكموها باسمه ، حتى قام أخيرا ذونواس — وهو من ذرية تبع أسعد كامل — وطرد الأشراف الثائرين ، وجعل نفسه حاكما لليمن غير مسئول ، وكان يهودياً متعصباً ، فجمع العزم على أن يستأصل شأفة المسيحية من نجران التى يقال إن النصرانية دخلتها على يد رجل مبارك يدعى فيميون ، ودخل الحميريون فى دينه أفواجا يدفعهم إلى ذلك كرههم لاستبداد الأحباش أكثر من احترامهم للدين . وحدث إذ ذاك أن قُتل طفلان يهوديان فأتاح هذا الحادث لذى نواس فرصة ليصب نقمته عليهم ، فسار إلى نجران على رأس قوة جرارة ، ودخل المدينة وخير أهلها بين اليهودية أو القتل ، فرفضوا دينه ، فحكم السيف فى أعناق الكثيرين ، وألقى بالآخرين فى أخدود أمر بحفره وأشعل النار فيهم ؛ وبعد مائة عام تقريباً من هذا الحادث حين لقى محمد (ص) أشد ضروب الاضطهاد من قومه أخذ يضرب لأتباعه المثل بنصارى نجران وكفاحهم : (قُتِلَ أصحابُ الأُخدودِ ، النّارِ ذاتِ الوَقودِ ، إذ هُم عليها قُعودٌ ، وهُمْ على ما يَفْعَلُونَ بالمؤمنينَ شُهود ؛ وما نَقَمُوا مِنهمْ إلا أن يُؤمِنوا باللهِ العَزِيزِ الحَمِيد[1]) وقد دفع ذو نواس ثمن هذا النصر غالياً ، فان دوس ذا ثعلبان كان قد نجا من القتل ففرّ إلى امبراطور الروم مستنصراً إياه باعتباره كبير المسيحيين ليساعدهم على أخذ ثأرهم ، فكتب يوستنيانوس رسالة إلى النجاشى طالباً اليه أن ينوب عنه فى تنفيذ هذه المهمة ؛ وسرعان ما حشد النجاشى سبعين ألفاً من الأحباش الأبيين ، وجعل عليهم أرياط قائداً ففزا اليمن . ولم يستطع ذو نواس الاعتماد على إخلاص أشراف حمير ، وتفرّقت قوّاته « فلما رأى ما نزل بقومه وبه وجّه فرسه إلى البحر ثم ضربه فدخل فيه ، فخاض به ضحضاح البحر حتى أفضى إلى غرق فاقتحمه فيه فكان آخر العهد به[2] » وبهذا انتهت سلسلة الملوك الحميريين

وعلى كل فان اليمن تظهر فى تاريخ ما قبل الاسلام ، كامارة حبشية أو ولاية خاضعة للفرس ، وأما القصص التى تروى بعد ذلك فتعتبر تمهيداً لرواية جديدة يمثل على مسرحها عربُ الجنوب دوراً تافهاً لا يعتد به[3]

(يتبع)

حسن حبشى

(١) ابن هشام ج ١ ص ٢٠

(٢) الأغانى ج ٢ ص ٨ س ١٤ — ١٥

(١) القرآن ٨٥ : ٤ — ٨

لكى يقف القارىء على الآراء المعاصرة والمسيحية المتأخرة المتعلقة باستشهاد نصارى نجران راجع كتاب « الحميريين » (النص السريانى والترجمة الانجليزية) طبعة A. Mobers سنة ١٩٢٤ وراجع :

Tor Andrae : Der Ursprung des Islams und das Christentum (Uppsalla, 1926) pp. 10—13

(٢) الطبرى ١ : ٩٢٧ س ١٩ وما يليه

(٣) راجع الطبرى ج ٢ ص ٩٢٨ س ٢ وما يليه ، وما كتبه نلدكه فى :

Geschichte der perser und Araber Zur Zeit der Sasaniden, p. 192 899.

أعداد الرسالة الممتازة

إدارة نشر وترويج الصحف العربية بشارع محمد على بالقاهرة لصاحبها محمد مصطفى الفقيه تعلن جمهور (الرسالة) بأن لديها كمية محدودة من الأعداد الممتازة رقم ٤٢ و ٩٣ و ١٤٦ ، ترسل إلى من يطلبها بسعر ثلاثين مليما للعدد الواحد خالصاً أجرة البريد فى مصر والسودان وأربعين مليماً فى البلاد الأخرى